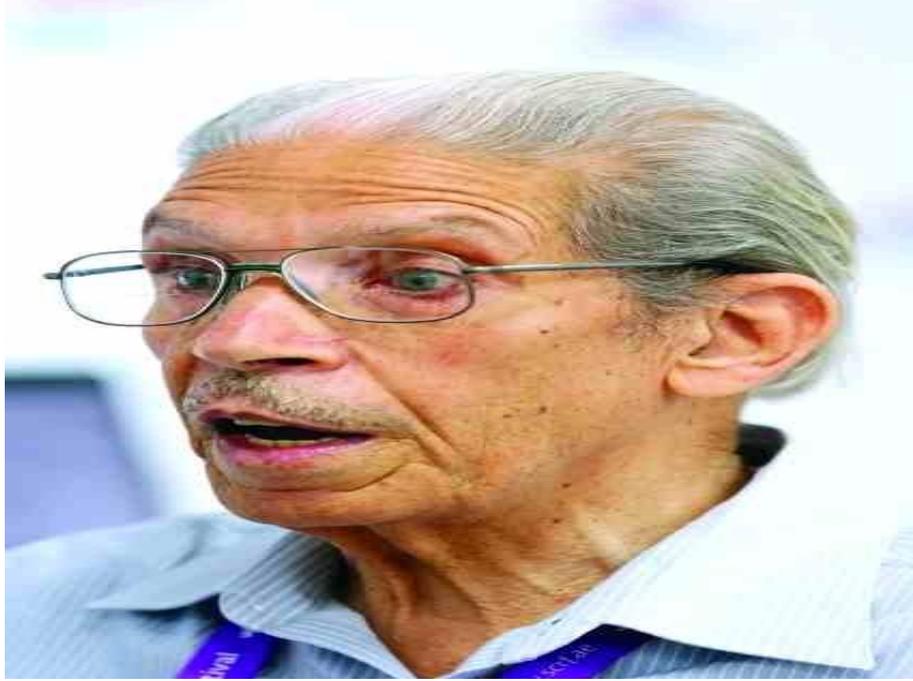


كنوز يعقوب الشارونى

أ. عفت بركات

معلم خبير - ناقد وباحث فى أدب الطفل



الدخول لعالم يعقوب الشارونى ليس سهلاً كما يظن البعض، هذا الأديب الكبير الذى يعايش قضايا الطفل بتلقائية حكيمة، ثم يطرحها لنا بشكلٍ مشوقٍ للطفل مثير لخياله، عامداً أن ينمى القدرة الإبداعية لديه، بل إنه اهتم بكل القضايا على الإطلاق، لم يغفل قيمة من القيم التربوية التى قد تساهم فى بناء الطفل وتشكيل وجدانه وتحفيز عقله على الإبداع وعلى المشاركة الإيجابية فى المجتمع.

عناوين القصص لدى يعقوب الشارونى أكبر مثال على هذا التحفيز، فهى تدخل دائماً فى جدل ذاتى مع نفسك وأنت تقرأ له، فنتساءل: كيف يختار العناوين بكل تلك الدقة لتصبح جاذبة لذهن الكبير والصغير على حد سواء؟

قضايا شائكة:

ولأننى تربيت على قراءة إبداعه القصصى، وتعلمت من قصصه الشيقة بالمكتبة الخضراء ملكة الحكى التى دفعتنى للكتابة بعد ذلك، فكثيراً ما أدهشنى بقدرته على مزج الخيال بالواقع، لأن صناعة الخيال عمل شاق للغاية، كما أن عقل الطفل الواسع الذكاء غير قادر على قبول ما يقدم له من إبداع إلا بشروط عديدة داخل عقله الكبير، رغم أننا نتعامل معه عكس ذلك تماماً.

ولعل الراصد لقصص الشارونى من البداية وحتى الآن يجد تنوعاً كبيراً ودائماً فى القضايا التى يتناولها كرصده للمشكلات المترتبة على عمالة الأطفال فى سن مبكرة فى "قليل من الراحة فوق السلام"، من خلال صبي البقال وما تعرض له من قسوة وإهانة وحرمان، وفى "مغامرة

زهرة مع الشجرة" من خلال الطفل المعاون للنشار. كما تعرض في القصة ذاتها لشجاعة الأطفال الذين واجهوا مشكلة خطيرة سببها جشع المسؤولين عن قطع الأشجار والإضرار بالبيئة، مباشرةً بثورة في تلك القصة من خلال وصفه لمواجهة الأطفال وحمائتهم للشجرة بأجسادهم في مشهد غاية في الجمال والاختزال لما يحدث من عاصفة بشرية بعد الاعتداء على شجرة.

كما تعرض لقضايا أبنائنا ذوي الاحتياجات الخاصة - أو ذوي القدرات الخاصة كما أسميها - في قصص عديدة، منها "سمكة نهاد التي لم ترسم من قبل"، وقصة "حكاية طارق وعلاء"، و"سر الاختفاء العجيب" وغيرها، مؤكداً على ضرورة الاهتمام بهؤلاء الأطفال وعدم التمييز في المعاملة بينهم وبين الأسوياء وعدم تهميشهم، للاستفادة من مواهبهم وقدراتهم العديدة والتعامل معهم بذكاء حتى يندمجوا في المجتمع، لأن لهم مثل الحقوق وعليهم أيضاً واجبات نحو هذا الوطن.

كما اهتم بقضايا الحفاظ على البيئة بحماية الأشجار كما في "مغامرة زهرة مع الشجرة"، والحفاظ على النيل من التلوث كما في "الرحلة العجيبة لعروس النيل" التي كشفت سوء معاملة المجتمع لنهر النيل شريان الحياة في هذا الوطن، كذلك في قصة "صرخة أم" إحدى قصص حكايات "ألف حكاية وحكاية".

تعرض أيضاً لقضية التعليم ومحو الأمية في أكثر من قصة، منها "شجرة تنمو في قارب"، كذلك ضرورة تعليم الإناث في الريف والصعيد في "مفاجأة الحفل الأخير"، وقضية أبنائنا في الشارع من خلال قصة "أحسن شيء أنى حرة"، وقضية الانتماء للوطن والدفاع عنه كما في قصة "مغامرة البطل منصور" الذي توحد توحداً كاملاً بالأرض، ليسد الفتحة التي يتسرب منها الماء إلى قريته التي تمثل وطنه بأكمله، ليحميها من الفيضان، كذلك في قصة "ليلة مظلمة في نهاية شهر عسل" التي تناول فيها الكاتب كيف قاوم بطل القصة الطفل فتحي الاحتلال الإنجليزي. كما تناول قضايا الآثار وممارسة الفنون والأنشطة التربوية بالمدارس وأهميتها.

تناول كل القيم الاجتماعية تقريباً، كالصداقة والتعاون والإيثار والكرم وحب العمل والعطف على الصغير والفقير واحترام الكبير، وغير ذلك من القيم العديدة.

الأسلوب القصصي:

بينما الملمح الذي يتأكد لدينا جميعاً وندفق عليه هو جنوحه كثيراً إلى القص الواقعي والتخلي عن القص الخيالي قطعاً هذا الملمح يعد اتجاهاً عالمياً الآن في تناول الإبداع الموجه للطفل، إنه التطور الطبيعي حسب الدراسات التي تؤكد عدم ميل الطفل حالياً للخيال المنطلق وسط كل هذا الزخم من المستحدثات الإلكترونية، بقدر انجذابه للقضايا الواقعية التي تزيده تمسكاً بواقعه، ورغبةً في قراءة العالم المحيط به.

بينما الشارونى يتعاش مع واقع يملكه بوعى، واقع يؤكد مدى ارتباطه بمجتمعه وقضاياه وبيئته التي نشأ فيها، فنجد لا يركز فقط على البيئة الريفية التي عايشها شهوراً طويلاً في طفولته، بل تناول إبداعه كل البيئات المصرية، ليكتب عن الريف والنيل والسوق والصحراء والسواحل وغيرها، ويتخطى أسلوبه حدود المكان لينال العالمية دون وسيط.

والمدهش في تناوله لأعماله هو أنك تشعر بمدى الجهد الذي يبذله للإلمام بدراسة المكان

والشخص بكل التفاصيل الكبيرة أو الصغيرة الممكنة عند سرده للحكاية، فتشعر وكأنك تسكن معه فى المكان بطل الأحداث، وترى كل التفاصيل أيًا كانت دقيقة، فهو لديه القدرة على اصطحابك داخل القصة بمهارة متناهية لشدة الصدق الفنى داخل العمل.

الحوار :

لغة الحوار الراقية والثرية التى تتخلل قصصه تشعرك بأن كل عمل من أعماله صالح للعرض فوق خشبة المسرح أو للصياغة السينمائية. فلغة الحوار لديه قوة البناء، تلائم كل شخصية على حدة. لغة بصرية شديدة الإثارة فى العديد من الحكايات. وفى جميع قصصه يصعب الاستغناء عن الحوار؛ لأنه ليس دخيلاً ولا مقحماً على العمل، بل مكماً وأساسياً فى البناء، فلا مجال لتجنبه بعيداً عن السرد.

مثال :

الحوار فى قصة "الأبناء لهم أجنحة"، التى ترصد حدثاً مؤلماً وواقعياً بسبب انهيار أحد المنازل فى منتصف الليل، تشعر فيها بسرعة الإيقاع ورائحة التراب العالق بالجو أثناء الأحداث، والتعاش داخل هذه اللقطة بكل مؤثراتها من صراخ وبكاء ومؤثرات صوتية، فتتشغل بما سيأتى، وتظل تنتبع الأحداث حتى النهاية، ربما للثراء اللغوى فى سرد الحكاية أو اللغة البصرية المستفزة لخيال القارئ طول الوقت :

- صاح ممدوح : "كيف أترك جهاز الكمبيوتر وأسطواناتى؟! ستضيع كل برامجى!"
- أسكتته والدته الذى حاول هو نفسه التسلُّل خُفِيَةً إلى شقته لإحضار نقوده وملابس مناسبة بدلاً من ملابس النوم التى يرتديها فى الشارع هو وأفراد أسرته، لكنَّ الشرطة منعتُه بحزم :
- "إذا كنتم لا تخافون على حياتكم، فالشرطة مسؤولة عن أرواحكم!"
- قالتِ الأم فى لهجةٍ عمليةٍ : "ليس أمامنا إلا حلٌ واحدٌ."
- صاح الأب مروان فى حِدَّةٍ : "نجلس هنا على رصيف حَى السكاكينى حتى تجد لنا الحكومة حلاً!"

- قالتِ زوجته بثينة : "الذهابُ إلى بيتِ والدى فى البلدِ معناه لا مدارس ولا عمل، وبيتُ والدك فى حلوان بعيدٌ وضيقٌ لا يتسع لأحدٍ. نذهبُ إلى منزلِ أخيك فى الزمالك."
بينما يختلف الحوار فى قصة "دنانير لبلبة"، القصة التى قد يتعامل معها البعض على أنها قصة خيالية رغم أنها فى قمة الواقعية، إذ تؤكد كيف يكافئنا الله على إيثار الغير والعطف على الفقراء، فحقق للطفلة الفقيرة الصغيرة لبلبة ما كانت تتمنى، وعاشت فى سعادة مع جدتها فى بيت جميل كانت تتمناه.

فالحوار هنا يختلف كلية باختلاف الشخصيات والمكان. يقول المؤلف :
- ثم استدارت الفتاتان إلى لبلبة الصغيرة وسألتاها : هل حدث لك شىء مما وقع لنا؟ هل كانت ليلتك حافلة بالألم والعذاب مثلنا؟
- قالت لبلبة الصغيرة : كلا.. بل على العكس.. أعتقد أن شيئاً يختلف تمامًا قد وقع لى، لقد وجدت ديناراً ذهبياً فى حذائى الأيمن ولست أدري من وضعه هناك...
الحوار أهم عناصر القصة لا يقل أهمية عن السرد، ولا نستطيع إغفال قيمته فى الحكاية،

لأنه قاسم مشترك مع سرد الأحداث، ولم يكن عبئاً عليها. وللشارونى القدرة على صياغة الحوار بشكل ملائم لكل حكاية عن الأخرى حسبما يتفق مع الشخوص وثقافة كل واحد منهم وبيئة المتحاورين.

أبطال الشارونى :

ولا ينفصل المكان عن الشخوص. ففي كثير من الأحيان يكون المكان هو البطل الحقيقي للقصة أو الرواية، مثل السوق فى "ليلة النار"، وقرية شارونة فى "عفاريت نصف الليل"، ونهر النيل فى قصة "الرحلة العجيبة لعروس النيل"، وصندوق زفاف أم نصرى (السحارة) فى "كنز بيت الأسرار"، وغير ذلك.

فالشارونى لديه القدرة على تقمص دور البطل فى كل أعماله بلا استثناء. فهو منصور فى "مغامرة البطل منصور"، وهو رادوبيس فى "سندريلا المصرية"، وهو الصغيرة القوية محاسن فى "مفاجأة الحفل الأخير"، وهو زهرة فى "مغامرة زهرة مع الشجرة"، وهو صبي البقال ومدوح فى "قليل من الراحة فوق السلالم"، وهو رأفت فى "كنز بيت الأسرار"، وهو طارق وعلاء ووجيه وحسين وخالد وعروس النيل وكل شخصياته التى يحكى عنها.

إن تعايشاً كبيراً مع الشخصية يحياه الشارونى فى كل قصة وكل حدث، وتلك أهم عناصر نجاح أعمال الشارونى: الصدق الذى يملكه عند السرد، مغلفاً بقدر كبير من الثقافة والخبرة والوعى لكل مفردة، والإلمام بتفاصيل الحياة فى الأماكن وصفات الناس وطرق تعايشهم مع البيئة بكانناتها أياً كانت دقيقة، ومعطياتها المتغيرة من مكان لآخر.

التطور البنائى والدرامى :

اللافت فى إبداع الشارونى القصصي عدم التشابه - من رواية إلى أخرى - بين الأبطال والأحداث والأماكن حتى فى قصص البيئة الواحدة، مثال ذلك "قرية شارونة" التى تناولها الشارونى أكثر من مرة فى أعماله. ففي قصة "عفاريت نصف الليل" ووصفه للقرية والطريق بينها وبين قرية الشيخ فضل، هذا الطريق الذى سكنه اللصوص وأوهموا الناس أنهم عفاريت، هنا المكان والحكاية يختلفان تماماً عن قصة "حكاية البطل منصور" أو "مغامرة فوق السد"، هذا الولد الذى أصر على حماية قريته عندما جاءها الفيضان، ويختلفان كذلك عن الوصف والأحداث فى القصة الثالثة لبطلتها الصغيرة محاسن التى أصررت أن تواصل تعليمها رغم الظروف الصعبة فى "مفاجأة الحفل الأخير".

القصص الثلاث أكبر مثال على قدرة الشارونى على التنوع شكلاً ومضموناً، فلا علاقة بين موضوع القصص الثلاث ولا بين التجارب الإنسانية للشخوص، ولا تقارب لفظى أو بصرى فى وصفه للأماكن والأحداث، رغم أنها تدور فى مكان واحد هو قرية شارونة.

حدث ذلك أيضاً فى قصصه عن الصحراء المترامية الأطراف التى تشترك فى ملامح واحدة تقريباً برمالتها وعواصفها، إلا أنها اختلفت أيضاً فى قصص الشارونى. ففي قصة "معجزة فى الصحراء" والبحث عن بئر بديلة وتحدى العاصفة والطريق إلى واحة سيوة، للبحث عن حلول سريعة لإنقاذ أهل الصحراء، تختلف تماماً ملامح المكان عن الصحراء فى قصة "حسنة والثعبان

الملكى" وكيفية حدوث كارثة السيول وما يترتب عليها من دمار، رغم أن المناخ واحد والتفاصيل المكانية واحدة، لكنه لا يدع مجالاً واحداً للتشابه بين الأماكن والشخوص.
وإن دل ذلك على شيء، فإنه دليل قاطع على مدى الثقافة الواسعة التى تسكن هذا المبدع الكبير، الذى يستفزنا إبداعه دائماً للوصول إلى نشوة الاستمتاع بمشروعه الإبداعى والاطلاع عليه؛ لننهل - من خبرته وثقافته الواسعة - من كنوزه الإبداعية العديدة لتكن مُعلماً لمن يرغبون الوصول إلى عالم الكتابة للطفل المحفوف دائماً بالمخاطر والصعوبات.